

تفسير البحر المحيط

@ 349 @ وجوز أيضاً أن يكون الذين كذبوا صفة لقول الذين كفروا من قومه وأن يكون بدلاً منه وعلى هذين الوجهين يكون { كَانَ } حالاً انتهى ، وهذه أوجه متكلفة والظاهر أنها جمل مستقلة لا تعلق بما قبلها من جهة الإعراب . { الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ } هذا أيضاً مبتدأ وخبره ، وقال الزمخشري : وفيه معنى الاختصاص أي هم المخصوصون بالخسران العظيم دون اتباعه فإنهم هم الراجعون وفي هذا الاستئناف لهذا الابتداء وهذا التكرير مبالغة في ردّ مقالة الملأ لأشياعهم وتسفيه لرأيهم واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم انتهى ، وهاتان الجملتان منبئتان عن ما فعل □ بهم في مقالتهما قالوا { لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ * شُعَيْبُ } فجاء الإخبار بإخراجهم بالهلاك وأي إخراج أعظم من إخراجهم وقالوا : { لَنُتَبِعَنَّ شُعَيْبًا إِن زَكَّيْنًا * إِنَّا لَنَخْسَرُونَ } فحكم تعالى عليهم هم بالخسران وأجاز أبو البقاء في إعراب { الَّذِينَ } هنا أن يكون بدلاً من الضمير في { يُغْنُوا } أو منصوباً بإضمار أعني والابتداء الذي ذكرناه أقوى وأجل . { فَتَوَلَّيْ عَنْهُمْ * وَقَالَ يَا قَوْمِ * قَوْمِ * لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَاتٍ رَّبِّي وَنَزَّاهُتُمْ لَكُمْ * } تقدّم تفسير نظيره في قصة صالح عليه السلام . { فَكَذَّبُوا عَلَى الْعِلَّةِ الَّتِي لَا تَبْعَثُ عَلَى الْحَزْنِ وَهِيَ الْكَفَرُ إِذْ هُوَ أَكْبَرُ مَا يَعَادِي بِهِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ هُمَا نَقِضَانِ كَمَا جَاءَ لَا تَتَرَاءَى نَارًا هُمَا وَكَأَنَّهُ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ رَقَّةً عَلَيْهِمْ حَيْثُ كَانَ أَمَلُهُ فِيهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا فَلَمْ يَقْدِرْ فَسَرَى ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ بِاسْتِحْضَارِ سَبَبِ التَّسْلِي عَنْهُمْ وَالْقِسْوَةِ فَذَكَرَ أَشْنَعَ مَا ارْتَكَبُوهُ مَعَهُ مِنَ الْوَصْفِ الَّذِي هُوَ الْكَفَرُ بِالْإِبْرَاهِيمِ عَلَى تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَعَلَى الْمَنَاوَاةِ الشَّدِيدَةِ حَتَّى لَا يَسَاكِنُوهُ وَتَوَعَّدُوهُ بِالْإِخْرَاجِ وَبِأَشَدِّ مِنْهُ وَهُوَ عَوْدُهُمْ إِلَى مِلَّتِهِمْ ، قَالَ مَكِّي : وَسَارَ شُعَيْبٌ بِمَنْ تَبِعَهُ إِلَى مَكَّةَ فَسَكَنُوهَا وَقَرَأَ ابْنُ وَثَابٍ وَابْنُ مَرْثَدٍ وَالْأَعْمَشُ إِيسَى بِكسر الهمزة وهي لغة تقدّم ذكرها في الفاتحة . .

{ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَيْدِي سَاءَ وَالضَّرَّاءُ لَعَلَّهُمْ * يَضُرَّ عُرْوُونَ } لما ذكر تعالى ما حلّ بالأمم السالفة من بأسه وسطوته عليهم آخر أمرهم حين لا تجدي فيهم الموعظة ذكر تعالى أن تلك عادته في أتباع الأنبياء إذا أصرّوا على تكذيبهم وجاء بعد إلا فعل ماض وهو { أَخَذْنَا } ولا يليها فعل ماض إلا أن تقدم فعل أو أصح بقدر فمثال ما تقدّمه فعل هذه الآية ومثال ما أصح قد قولك ما زيد إلا قد قام والجملة من قوله { أَخَذْنَا } حاليّة أي إلا آخذين

أهلها وهو استثناء مفرغ من الأحوال وتقدم تفسير نظير قوله { إِنْ لَا أَخَذَ زَنَّا } إلى آخره . { ثُمَّ بَدَّلْنَا لَظَنًا مَّكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ } أي مكان الحال السيئة من البأساء والضراء الحال الحسنة من السراء والنعمة ، قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة مكان الشدة الرخاء ، وقيل مكان الشر الخير ومكان و { الْحَسَنَةَ } مفعولاً بدل و { مَّكَانَ } هو محل الباء أي بمكان السيئة وفي لفظ { مَّكَانَ } إشعار بتمكن البأساء منهم كأنه صار للشدة عندهم مكان وأعرب بعضهم { مَّكَانَ } ظرفاً أي في مكان { حَتَّىٰ عَفَّوْا } أي كثروا وتناسلوا ، وقال مجاهد : كثرت أموالهم وأولادهم ، وقال ابن بحر حتى أعرضوا من عفا عن ذنبه أي أعرض عنه ، وقال الحسن : سمعوا ، وقال قتادة سراً بكثرتهم وذلك استدراج منه لهم لأنه أخذهم بالشدة ليتعطوا ويزدجروا فلم يفعلوا ثم أخذهم بالرخاء ليذكروا . { وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ } أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا هذه عادة الدهر ضرّاء وسرّاء وقد أصاب آباءنا مثل ذلك لا بابتلاء وقصد بل ذلك بالاتفاق لا على ما تخبر الأنبياء جعلوا أسلافهم وما أصابهم مثلاً لهم ولما يصيبهم فلا ينبغي أن ننكر هذه العادة من أفعال الدهر . { فَأَخَذَ زَاهُمُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } تقدم الكلام على مثل هذه الآية لما أفسدوا على التقديرين